المقدمة

من أول أهداف التصدي لمعالجـــة « فن الحرب في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين » هو ابراز معالم الفتوحات العربية الاسلامية ووضعها في اطار يتوافق مع روح العصر وذلك من خلال عرض « الأحداث التاريخية » وتحليلها بصورة منهاجية « مبرمجة » تتوافق مع الواقع ـ قدر المستطاع ـ دونما مبالغة تنتهي إلى شطحات طوباوية تضر بهذا الواقع وتفسده ومن غير تحريف يفسد هذا الواقـع أيضاً وينتهي به إلى تشويه مدمر .

ـ لقد برزت من خلال هـــذا العمل حقائق موضوعية تنقض المسلمات التي تتداولها كتب التاريخ الحديثة والتي تغرسها في العقول عن عمد أو غير عمد . ـ وأول هذه المسلمات [أن الفتوحات العربية ـ الاسلامية قد حدثت في غفلة من الدهر كانت فيـــه الامبراطوريات العظمى التي تصدت للفتوحات ـ كفارس وبيزنطة ـ في وضع الانهيار بحيث لم يلق العرب المسلمون في فتوحاتهم مقاومة كبيرة فأطاحوا بتلك الامبراطوريات وانتشروا في كل بقعة من العالم القديم] .

ـ ومن تلك المسلمات أيضاً [أن الفتوحات العربية الاسلامية قد حدثت بتأثير الحاجـــة .. والفقر ، والصراع على موارد العيش] واسقاط العامل الروحي والمعنوي الذي كان له الدور الأول والحاسم في انجـــاز الفتوحات والانطـلاق إلى كل صقع من العالم ـ تلك هي بعض المسلمات لا كلها ـ وهي مسلمات خاطئة ،.

خاطئة لأن فارس لم تكن على مثل هـــذه الدرجة من الضعف وهي التي

استطاعت قبل الفتوحات الاسلامية بسنوات قليلة أن تصل بجيوشها إلى قرب العاصمة البيزنطية وتحتل بلاد الشام ومصر ، حيث نزلت الآية الكريمة :

[آلم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ..] الآية ١ - ٤ - الروم .

ولم تكن بيزنطة على مثل هذه الدرجة من الضعف وهي التي استطاعت بعد تسع سنون أن ترد الضربة وتقوم بهجوم حاسم يصل بقواتها حتى عاصمة « فارس » ..

– لم تكن فارس على مثل هـــذه الدرجة من الضعف وهي التي زجت في القادسية ١٣٠,٠٠٠ مقاتل ، وزجت في المعارك المتتالية قوات لو حشدت كلها في معركة حاسمة لكانت قوة جيشها يزيد على المليون ، مقابل بضعة آلاف فقط من العرب المسلمين ..

– ولم تكن بيزنطة ضعيفة وقد زجت في معركة اليرموك ٢٤٠,٠٠٠ مقاتل وفي اجنادين ٨٠,٠٠٠ وفي بقية المعارك قوى متفرقة لو حشدت كلها لشكلت جيشاً يزيد على المليون ، مقابل ٣٠,٠٠٠ فقط من قوة العرب المسلمين ..

ولم تكن الحامية المدافعة عن مصر ضعيفة يوم هاجمها عمرو بن العاص ، فقد كانت حامية الاسكندرية وحدها ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وزجت القيادة في معركة أم دنين ٨٠,٠٠٠ مقاتل . وكان في بابليون والفرماء والمواقع الأخرى قوات تزيد في مجموعها على نصف مليون مقابل ثمانية آلاف فقط ..

– وجابه العرب المسلمون عنـــد فتح ليبيا وفي معركة القعوبة ١٢٠,٠٠٠ مقاتل و كانت قوتهم ٢٠,٠٠٠ فقط ..

– وجابه العرب المسلمون عند فتح تونس وفي معركة « الأجم » ٣٠,٠٠٠ مقاتل مقابل عشرة آلاف ..

– ولم تكن قوات فتح اسبانيا تزيد على بضعة آلاف ، مقابل عشرات الآلاف ..

وإذا ما أخذ بعين الاعتبار ميزان القوى فإن هـذا الميزان لم يكن أبداً في صالح العرب المسلمين وكان التفوق دائماً في صالح خصومهم بمعدل أقله ثلاثة مقابل واحد وأكثره عشرة إلى واحد أو يزيد . ورغم ذلك انتصر العرب المسلمون ..

– وكان العرب المسلمون في موقف الهجوم ، وكان خصومهم باستمرار في موقف الدفاع ، فاذا ما أخذ بالموازين التقليدية وجب أن يكون ميزان القوى لصالح العرب المسلمين ..

– لقد انتصر العرب لأنهم مهاجون ، ولأنهم حاربوا لا بأعدادهم – كما قال الخليفة أبو بكر الصديق ومن بعده الخليفة عمر – وإنما انتصروا بقوة الدين والإيمان ..

وقد يكون من السهل تعليل انتصار العرب بالتمزق الديني الذي كان واقعاً في أقاليم فارس وبيزنطة ومصر وشمال افريقية والأندلس ..

– وقد يكون من السهل أيضاً تعليـل انتصار العرب بالتمزق العسكري وضعف الانضباط وأخطاء القيادة . وقد يكون من السهل بعـد ذلك تعليل هزيمة فارس وبيزنطة وانتصار العرب بألف مسوغ ومسوغ ، لكن هناك حقائق وفن الحرب يستند إلى الحقائق الموضوعية قبل كل شيء . ومن هنا وعلى ضوء الواقع يمكن القول أن الولايات المتحدة الأمريكية تعاني من تفسخ النظـام الاقتصادي وتمزق النظام الاجتماعي ووجود التفرقة العنصرية مما وضع الولايات المتحدة الامريكية على حافة الإنهيار ..

. – ومن الممكن القول أيضاً ان الاتحاد السوفييتي يعاني من كبت الحريات مما تسبب في ظهور حركة « الكتاب » والنشرات السرية وربيع براغ . وان الاتحاد السوفييتي أيضاً يعاني من التناقضات بين الحزب وجماهير الشعب وبين

الحزب والقيادة وأجهزتها المختلفة مما وضع الاتحاد السوفييتي على حافة الإنهيار..

فكيف إذاً حقق الاتحاد السوفييتي النصر في حربه الوطنية العظمى ؟.

– وكيف استطاعت الولايات المتحدة أن تزج جيوشها في الحروب العالمية الثانية فوق كل بقعة من العالم ؟

– ان هذه الأمراض الاجتماعية – رغم وجودها – تضعف من القدرة القتالية وتحبط ارادة القتال عند الأمة وهي توضع في كفة الميزان عند تقدير الموقف ولكنها ليست كل العوامل – انها بعضها وبعضها فقط – .

– ثم كيف استطاعت فييتنام الصغيرة إلحاق هزائم عسكرية بالقوات الامريكية ؟.

السبب ، ليس في ضعف امريكا بل في قوة فييتنام ، وارادتها على انتزاع النصر..

لقد انتصرت ثورة الجزائر « لا بسبب ضعف فرنسا » وإنما بسبب قوة الجزائر واصرارها على انتزاع النصر مهما بلغت التضحيات..

هذا هو العامل الثاني – ارادة النصر – ، وهي التي عبر عنها مونتغومري بقوله:

[لا توجد معركة فاشلة إلا إذا أراد لها قائدها ذلك] .

وعودة إلى المسوغات .

– لم تكن بيزنطة ضعيفة ..

فقد استطاعت زج قوات كبرى في المعركة أو في مجموعة المعارك التي خاضتها ضد العرب المسلمين ثم تابعت حرب الاستنزاف ضدهم ، وكان الرد الأموي هو تنظيم الصوائف والشواتي وتصعيد العمليات فيها إلى حرب حقيقية فوصل العرب في عهد معاوية مرتين حتى أبواب القسطنطينية ، ووصل مسلم بن عبد الملك بجيوشه حتى القسطنطينية وبقيت قوات العرب المسلمين في حصارها سنة كاملة وذلك عام ٩٨ هـ ..

كما استطاعت متابعة حروبها بعد قيام الدولة العباسية ووقعة عمورية حلقة

في سلسلة حرب الاستنزاف التي خاضتها بيزنطة ضد العرب المسلمين ..

ومقابل ذلك ، وصلت بيزنطة إلى أبواب دمشق مرات عديدة ، وهاجمت الاسكندرية بعد الفتح وبقي أسطولها البحري مصدر خطر وازعاج طوال العهد الاموي وصدر العهد العباسي ، وكان لبيزنطة دور كبير في تحريك عملائها والتحريض على الثورة المضادة طوال قرون عديدة بعد الفتح الاسلامي .. وقد نجحت هذه الثورات المضادة في افريقية الشمالية بصورة خاصة ـ ولو لفترة محدودة ـ وكانت بيزنطة تخطط للثورات المضادة وتدعمها بعمليات إنزال بحري، وان مثل هذه العمليات لا تقوم بها دولة ضعيفة .

وعلاوة على ذلك فقد استطاعت بيزنطة الصمود على الجبهة الأوربية .

ففي عام ٩٧٠ م حاول الامبراطور والقائد البيزنطي الكبير ايوان سيميسكي ابعاد الروس عن بلغاريا ، كما كان أمير « كييف » يعد بدوره حملة للهجوم على القسطنطينية ووصلت قواته إلى البلقان ولكنها عادت بسرعة وتم عقد الصلح بناء على اقتراح الامبراطور ايوان ..

وفي ربيع عام ٩٧١ م ، ودون النظر إلى معاهدة الصلح أرسل الامبراطور البيزنطي ٣٠٠ مركب عبر نهر الدانوب وانطلق هو أيضاً بجيش كبير نحو البلقان حيث وجه ضربة حاسمة إلى الوحدات الروسية الأمامية ووصل إلى مدينة دوروستلاو وحاصرها فترة أشهر ثلاثة ، وانتهت الحرب بعقد صلح بين الطرفين كان الجانب البيزنطي فيه هو الطرف الأقوى ..

لقد حدثت هذه المعركة بعد الفتح العربي الاسلامي بما يزيد على ثلاثة قرون ، ولم تسقط بيزنطة إلا بعد الفتح العربي ـ الاسلامي بثمانية قرون ونيف ، بحيث يمكن القول : [ان ضعف بيزنطة قد جاء نتيجة لانتزاع مجالها الحيوي وإلحاق الهزائم المتتالية بقواتها العسكرية] .

. أصيبت بيزنطة بالضعف نتيجة لقوة العرب،ولم يكن انتصار العرب المسلمين بسبب ضعف بيزنطة والفرق كبير بين الواقعتين التاريخيتين أو بين الموقفين ..

وما يقال عن بيزنطة يقال عن فارس .

وما يقـــال عن الدولتين العظيمين يقال أيضاً عن مصر وشمال افريقيا والأندلس والهضبة الايرانية ..

كانت قوة العرب وإيمانهم بحتمية النصر من أول عوامل نجاحهم في عملياتهم القتالية . ولقـــد أساءت بيزنطة وفارس تقدير قوة العرب المسلمين القتالية ولم تتمكنا من فهـم التبدلات الجذرية التي أحدثها الدين الاسلامي في بعث القوة العربية وتوحيدها وكان لهذا العامل دوره الحاسم فيما حققه العرب المسلمون من انتصارات .

– كان من نتيجـــة سوء تقدير الموقف ان دفعت بيزنطة وفارس بمجموعات متتالية متتابعة لتدمير قوات العرب المسلمين،وطبق العرب المسلمون استراتيجية « بقعة الزيت » أو « الخرشوفة » فأخذوا يدمرون بمجموعات العدو على التتابـع ويحققون النصر بعد النصر ويوسعون قاعدة عملياتهم خطوة بعد خطوة حتى إذا جاءت المعركة الحاسمة « في اليرموك والقادسية ونهاوند والاسكندرية والأجم وغيرها ... » كانت قوات العرب المسلمين على استعداد نفسي كامـــل لخوض المعركة بينما كانت إرادة القتال عنـــد خصومهم في حال « احباط كامل » .. وكان في ذلك سبب من أسباب النصر .

– وطبق العرب المسلمون في حروبهم عزل مسرح العمليات وحرمان العدو من امداداته واضعاف شؤونه الادارية فكان في ذلك واحد من عوامل النصر .:

– وبحث قادة العرب المسلمين عن « المباغتة » في كل معركة من معاركهم وكان في ذلك أحد عوامل نصرهم ..

– وطبق قادة العرب المسلمين مبادىء الاستطلاع ، والمحافظة على الأمن ، والحشد والمرونة وحافظوا على المبادأة وكان في ذلك نصرهم :.

واستخـدم العرب المسلمون أسس الحرب النفسية واستراتيجية الهجوم غير المباشر .

– ولم تكن هذه المبادىء جميعاً قد وضعت في قوالب نظرية محددة ومفاهيم ثابتة لكن استعراض مسيرة العمليات تظهر بوضوح تام أن معارك العرب المسلمين قد نفذت في اطار من التنظيم الدقيق والمتوافق مع مبادىء [فن الحرب] في مفاهيمها الحديثة ..

– لقد أظهرت الفتوحات العربية الاسلامية طبقة قيادية على درجة عالية من الكفاءة والذكاء، وكانت هذه الطبقة القيادية تبحث بوحي من إيمانها عن الوسائل والأساليب التي تضمن لها النصر ، وكانت تطور هذه الوسائل والأساليب تبعاً للمواقف التي تجابهها ، وكان من حصالة التجارب تكون فن الحرب وتطوره في عهد العرب المسلمين .

– وأظهرت مسيرة العمليات القتالية جيوشاً من المقاتلين لم يشهد العالم مثلها في صلابتها وقسوتها وقدرتها على تحمل المشاق بروح من الاخلاص وانكار الذات لا مثيل لها في التاريخ .. وكان الإيمـــان الحافز الأول والأخير للمقاتلين في حروبهم والعامل الاول والاخير في تحمل كل الصعاب ، مما جعل النصر في قبضة العرب المسلمين .

– ان الفتوحات الاسلامية بمجموعها معارك « عقائدية » هدفها نشر الدين الاسلامي ، وكان الإيمان بواجب نشر الدين وفرض الاسهام به على كل مؤمن ، قد نظم العرب كلهم في جيش شعبي واحد ، وكان في ذلك النصر ..

لقد حقق العرب المسلمون انتصاراتهم :

١ – لإيمانهم العميق بحتمية انتصارهم وواجبهم في نشر الدين .
٢ – لتوفر قيادات على درجة عالية من الكفاءة .
٣ – لتطبيق مبادىء « فن الحرب » بمهارة تبعاً للمواقف التي يجابهونها ..

وكان في ذلك مصدر قوتهم ..

وقد أخذت بيزنطة – رغم تطورها في فن الحرب – الكثير من المبادىء ونقلتها إلى اوربا ..

وأخذت أوربا نتيجة معاركها المستمرة مع العرب في اسبانيا ، ما أحدثه العرب من تطورات في فن الحرب ..

وكانت تجارب « الحروب الصليبية » مجالاً لاقتباس « فن الحرب » عند العرب وتطويره .

لقد جابهت القوات العربية الاسلامية تحديات كبيرة وكانت - لولا إيمانها - دون مستوى التحديات سواء في عددها أو في تسليحها أو في اعدادها ، لكن الإيمان بحتمية النصر هو الذي جعل هذا النصر حليفاً للمؤمنين ..

لقد أعطى العرب المسلمون للعالم علماً وفناً وأدباً ، ولعل « فن الحرب هو من أبرز الفنون التي طورها العرب » وأعطوها للعالم .

وإذا كان بناء الحاضر والمستقبل مرتبط بقاعدة الماضي ، مشدود بثبات إليها ، فما أحوجنا لمعرفة « ما ضمه تراثنا » .

وأرجو مخلصاً أن تكون هذه الدراسة لبنة في معرفة هذا « التراث الخالد » .